

# العلم الشرعي وطبيعة العصر قراءة في ملامح المصادمة - الفقه و أصوله أنموذجاً -

الأستاذ عبد القادر بن حرز الله  
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية  
باتنة

إن قدرة لتشريع الإسلامي على امتصاص صدمات الطوارئ واحتوائها لا ينتظر أن تسفر عنها اجتهادات علمائه في هذا العصر المكثر بالتغيرات الجذرية والتحويلات الكبرى في الحياة البشرية ، بل لا يمكن أن تكون نتائج اجتهاداتهم في ذلك مقياساً لهذه المقدرة ، إذ مظاهر هذه القدرة تجلت واضحة في أول اصطدام فعلي مع طبيعة العصر (الزمن) الذي جاء فيه والتي كانت غريبة تماماً عن طبيعة تشريعه (فقد كانت الأحكام الشرعية متناقضة تماماً مع طبائع أولئك الناس الذين تنزلت عليهم وقضت بنقلهم بشكل انقلابي من فوضى الحياة القبلية إلى نظام تشريعي صارم يفطمهم عن كثير من الأهواء والرغبات والمحبات ويتقلهم بكثير من الأعباء والقيود الشرعية ... وكان بينها وبين نهج حياتهم ما بين النقيض والنقيض ، ومع ذلك فقد قارع الإسلام الذي هيمن على حياة أولئك الناس تلك التجديات المتهاجة كلها حتى أذابها وقضى عليها) <sup>1</sup> ، ونتيجة هذا الاصطدام هي المعيار الفعلي للوقوف على إمكانات التشريع الإسلامي من احتواء الطوارئ مهما كانت غريبة عن منطق أو شاردة عن فلكه ، وليس معنى هذا التقليل من تحفز الكثير من العلماء في النظر إلى طبيعة هذا العصر المتغيرة ، لكن مقولات الناف من طبيعة العصر وتاريخية التشريع الإسلامي يجب أن تأخذ حجمها الطبيعي ويجب أن لا تسترسل في ممارسة أثرها الإحباطي الذي يسعى للمبالغة في عمق الغرابة المركبة لطبيعة العصر ، والماضوية المتناهية للتشريع الإسلامي .

وفي هذا البحث سأحاول إن شاء الله الوقوف على واقع الاصطدام بين العلوم الشرعية وطبيعة العصر، ونقد بعض التوجهات المعاصرة لتجديد بعض العلوم الإسلامية حتى تصبح أكثر مواكبة للتغيرات الجديدة التي يفرضها الواقع والتي تنطلق من المبدأ السابق الذي يقوم على الذهول من طبيعة العصر المعقدة .

### أولاً : عزلة العلم الشرعي عن واقع العصر وتحدياته .

إن أي مهتم بالعلوم الشرعية يدرك تماماً أن هناك اصطدام فعلي بين طبيعة العصر وبين الواقع المنزوي للعلوم الشرعية التي تكاد أن تصبح مجرد تاريخ لعلوم مضت بسبب عزلتها الكبيرة عن مقتضيات الواقع ، عكس ما تحاول بعض المواقف الهروب منه والتنكر للتسليم به ( لفرط إعجابهم بترائنا الحافل وفرط ثقفتهم بفقهائنا العظام )<sup>2</sup>، قد نختلف في تحديد طبيعة المصادمة وأبعادها لكن يجب أن نتفق على وجودها لأن الإحساس بأثرها يدهمنا عند مجرد الاقتراب من حافة أي من هذه العلوم ويفرض ذلك بلغة الإلزام ، لذلك فإن بعض الباحثين المعاصرين يجزم بأن واقع العلوم الشرعية أصبح يمثل ( انقطاعاً مضاعفاً عن العصر ، لأنها لم تكن فقط تعبيراً عن فهم وبرامج العصور السالفة فحسب — كسائر علوم التراث ومعارفه — بل لأنها كانت كذلك تعبيراً غير سديد حتى في عصرها الذي وجدت فيه ، وهكذا يجد الطالب نفسه حين يحاول تبني هذه الفهوم والبرامج أو الدفاع عنها لا يعيش فقط معارك الماضي ومشكلاته فحسب ) بل يعيش أيضاً أخطاء الماضي بكل صورها ، ولقد كان الشيخ الطاهر ابن عاشور سابقاً في الشعور بعجز العلوم الإسلامية عن مواكبة التحديات المعاصرة لذلك فقد أبدى ضجره من معارف المحيطين به ( فإنك لتنتظر للرجل وهو ابن القرن الرابع عشر فتحسه في معارفه وعلمه وتفكيره من أهل القرن التاسع أو العاشر مما هو معلول لوقوف تقدم التأليف عند الحد الذي تركه الواقفون)<sup>4</sup>، ومع أن ( الجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين )<sup>5</sup>، فإن هذا الجمود الذي استتكره القرافي ولاحظه ابن عاشور قد اكتسب أوصافاً أخرى ربما فرضتها المحاولات القاصرة للانعتاق والتحرر منه .

